المبحث الثاني

طرق البحث (الأدوات المنهجية)

يمثل تاريخ الأنثروبولوجيا (في بعض جوانبه) المحاولات المستمرة لإحلال المعرفة اليقينية عن الشعوب البدائية مكان الأفكار التي تعتمد على التخمينات، وأقوال الرحالة والمستكشفين وجنود الاستعمار. وقد وصفت هذه الكتابات الإنسان البدائي على أنه حيوان فظٌّ متوحش يختلف عن إنسان أوربا والدول المتمدنة، ثم ظهرت كتابات تالية تمثله إنساناً رقيقاً مهذباً يعيش على الطبيعة في رخاء وسلام ودَعَة. . يظهر هذا التناقض بوضوح في تاريخ الأنثروبولوجيا الاجتماعية. فقد صور مفكرو القرنين السابع عشر والثامن عشر الحياةَ البدائية على أنها حياة منعزلة فقيرة وحشية قاسية، ويقوم هذا الفهم على أساس التخمينات أو المبالغة وليس على أساس المنهج العلمي. وعندما زادت معلوماتنا عن الشعوب البدائية في الفترة ما بين منتصف القرن الثامن عشر ومنتصف القرن التاسع عشر تبين للمفكرين خطأ الصورة السابقة شعروا بالجرم الذي اقترفوه بحق الإنسان البدائي، وكنوع من التعويض اتخذوا موقفاً مناقضاً للسابق، فوصفوا الإنسان البدائي بالطيبة والرقة والخير، وبأنه يحتاج إلى مساعدة الإنسان المتمدن، ولا شك أن هذا الرأي كذلك لم يقم على أساس المنهج العلمي وإنما على تصورات ومبالغات غير واقعية. واستمر الحال هذا إلى أن اكتشف العلماء في نهاية القرن التاسع عشر إمكانية تطبيق المنهج العلمي في الأبحاث الأنثروبولوجية عن طريق الدراسة الميدانية. وتتمثل في ملاحظة

الواقع الاجتماعي مباشرة، أي يقوم العالم نفسه بجمع المعلومات بطرق معينة ثم يقوم بتحليلها، وبالتالي يستطيع أن يتأكد من استخدام المنهج العلمي في جمع المعلومات، ويختلف هذا الأسلوب عن الأسلوب الذي استخدم قبل ذلك والذي يتمثل في اعتماد الأنثروبولوجي الاجتماعي على أشخاص غير متخصصين (الرحالة والمستكشفين ورجال الإدارة وجنود الاستعمار) في جمع المعلومات، ثم يقوم هو بتحليلها على أساس التسليم بأن المعلومات التي أمامه صحيحة ويمكن الاعتماد عليها، ولا شك أن تلك المسلمة كانت خاطئة وترتب على ذلك خطأ التحليلات والقوانين التي توصل إليها مفكرو الأنثروبولوجيا الاجتماعية في تلك الفترة. ولقد أشرنا سابقاً إلى أن أول دراسة ميدانية في هذا العلم هي دراسة بعثة جامعة كمبردج لمنطقة مضايق توريس في المحيط الهادي في عامي ١٨٩٨ و١٨٩٩م، ورأس العلامة الإنجليزي «هادون» تلك البعثة. وأخذت تتوالى الدراسات الميدانية بعد ذلك، ولا شك أن تلك الدراسات تدعي جميعها تطبيق المنهج العلمي بجميع عناصره. ويعتمد الأنثروبولوجيون في تطبيق المنهج العلمي (أثناء دراساتهم الميدانية) على طرق بحث معينة أهمها ما يأتي:

أ- الملاحظة بالمشاركة:

يطلق بعض العلماء على الملاحظة بالمشاركة اصطلاح «التدخل الوظيفي» يقابل الباحث في بداية دراسته الميدانية مشكلة «الدور» الذي يجب أن يؤديه لكي يحصل على معلومات موضوعية، وترجع أهمية تلك المشكلة إلى الحقيقة القائلة: إن وجود الباحث في عشيرة أو قبيلة ما تدفع

الأفراد موضع الملاحظة إلى تغيير سلوكهم العادي أو إلى الإدلاء بأقوال لا تعبر عن الواقع؛ وذلك لشعورهم بأنهم خاضعون لملاحظة غيرهم، ولذلك لابد للباحث أن يقوم بدور ما في المجتمع. بحيث يترتب عليه أن يقبله أفراد المجتمع وكأنه أحدهم، وبالتالي يكتسب ثقتهم ويبدد الشكوك حول مهمته، ويضعف شعور العداء الذي يواجه الغريب عندما يدخل مجتمعًا ما لأول مرة، وهكذا يذهب الأنثروبولوجي الاجتماعي إلى المجتمع الذي يدرسه؛ ليعيش فيه فترة من الزمن لاكتساب ثقة الأفراد وجمع المعلومات اللازمة، ولا يبدأ الباحث الزيارة بالدراسة وتوجيه الأسئلة وإنما يتعلم أسلوب الحياة الجديدة، فعليه أن يتكلم لغتهم ويستخدم في تفكيره التصورات نفسها أو المفاهيم السائدة ويشعر بالقيم التي يعتنقونها ويعمل معهم ويشاركهم طعامهم واحتفالاتهم وارتداء ملابسهم، وفي بعض الأحيان يدخل كأنه عضو في جمعياتهم إذ سمحت النظم الاجتماعية بذلك. وعليه طوال تلك الفترة أن يكتب تقارير يومية عن كل صغيرة وكبيرة تقابله، ولا داعي لتكرار أهمية الموضوعية في كتابة التقرير؛ وذلك لأنه من المفروض أن طريقة الملاحظة بالاشتراك تدخل في نطاق المنهج العلمي الذي عرضت عناصره من قبل وأهمها: عنصر الموضوعية.

وعندما تتضح له فكرة عامة عن أسلوب المعيشة في المجتمع يبدأ في التحليل والكشف عن عناصر البناء الاجتماعي أو الترتيب البنائي للمجتمع حتى تصبح دراسته مفهومة وواضحة ليس فقط على مستوى

أفراد المجتمع ذاته أو الباحث نفسه وإنما أيضاً على مستوى التحليل الاجتماعي. فكما أن العالم اللغوي لا يقنع بمجرد فهم إحدى اللغات الوطنية وإجادة التحدث بها وترجمتها وإنما يحاول تحديد نظم الأصوات والقواعد المطبقة في تلك اللغة، كذلك فإن الأنثروبولوجي الاجتماعي لا يقنع بملاحظة الحياة الاجتماعية في مجتمع ما ووصفها وإنما يحاول الكشف عن الترتيب البنائي الذي يكمن تحتها، أي أن يكشف عن النماذج والأنماط التي تمكنه من ملاحظة البناء الاجتماعي ككل مترابط الأجزاء، وقد يتجه إلى التركيز في الدراسة على نظام اجتماعي، مثل: نظام الزواج أو النظام الاقتصادي أو النظام القرابي أو الأخلاقي أو المعتقدات أو الطقوس، وقد يركز انتباهه على مجموعة محددة من المراكز والأدوار الاجتماعية، وفي أحيان أخرى يركز الباحث ملاحظاته على شكل مورفولوجي معين، مثل: المعشر أو العشيرة أو القبيلة، وهكذا سواء كان موضوع التركيز ضيقاً أو واسعاً فإن على الأنثروبولوجي الاجتماعي أن يستخدم الملاحظة بالمشاركة في جميع المعلومات عن جوانب البناء الاجتماعي بحيث يمكن ملاحظته ككل، ويعرف ذلك الأسلوب بالطريقة الكلية وهي إحدى الخصائص الرئيسة في منهج الأنثروبولوجيا الاجتماعية. ويحدد العلامة «إيفانز بريتشارد» شروط نجاح الملاحظة بالمشاركة في الأنثروبولوجيا الاجتماعية فيما يأتي:

١- أن تسبقها مرحلة تخصص ودراسة نظرية كافية في الأنثروبولوجيا عامة والعلوم الاجتماعية وبخاصة علم الاجتماع، ويفهم من ذلك ضرورة

الحصول على الدرجة الجامعية الأولى على الأقل في أحد فروع العلوم الاجتماعية قبل القيام بالدراسة الميدانية وتطبيق الملاحظة بالمشاركة.

٢- على الباحث أن يقضي فترة كافية في مشاركة أفراد المجتمع موضوع الدراسة في معيشتهم، ويجب ألا تقل تلك الفترة عن عام، ويرى بعض العلماء أن ستة أشهر قد تكون كافية، ولا شك أن تحديد الفترة الكافية يرتبط بعوامل متعددة، مثل: حجم المجتمع وطبيعة المشكلة المراد دراستها دراسة مركزة.

٣- أن يكون الباحث طوال فترة الملاحظة على صلة وثيقة بالأهالي، ويتم ذلك عن طريق اشتراكه في معظم جوانب حياتهم الاجتماعية.

٤- على الباحث أن يستخدم في حديثه مع أفراد المجتمع موضوع الدراسة لغتهم الوطنية، ولا يستخدم المترجم، إذ كثيراً ما يفشل المترجم في نقل الأفكار والمعاني بدقة كاملة.

٥- وعليه أيضاً أن يدرس جوانب الحياة الاجتماعية كلها وإن كان سيدرس جانباً معيناً بالتفصيل. وفي الغالب لا ينشر الباحث سوى جزء يسير من دراسته، ولكن الدراسة الكلية للمجتمع ضرورية حتى يستطيع فهم البناء الاجتماعي وتحديد وظائفه.

٦- لابد من توفر نوع معين من الشخصية والمزاج، فبعض الناس لا يستطيعون تحمل مشاق العزلة عن وطنهم الأصلي، فغالباً تكون الحياة في المجتمع موضوع الدراسة قاسية، وخاصة أن الظروف غير الصحية تنتشر

في المجتمعات البدائية، هذا بالإضافة إلى تعرض الباحث لتغيير عادات الطعام والمسكن والملبس والمشرب؛ ولذلك لا يستطيع الكثيرون تكييف أنفسهم عقلياً، ونفسياً، وجسمياً مع تلك الظروف الجديدة.

٧- على الباحث أن يتخلى عن قيمه وثقافته بقدر المستطاع حتى يتمكن من تحقيق الملاحظة الموضوعية، ولا شك أن الأفراد الذين يتقنون الملاحظة يستطيعون الوصف الدقيق للمجتمع، ولكن عندما ينتقلون إلى مرحلة الفهم والإدراك العميق فإنهم يحتاجون إلى الكثير من الذكاء. ويجب عدم إغفال أهمية مزاج الباحث وطباعه، فقد يحدث أن يخفق أحد الباحثين في دراسة مجتمع معين، ولكنه ينجح في مجتمع آخر.

٨- يحتاج الباحث لمهارة أدبية في نقل البناء الاجتماعي إلى لغة الباحث نفسه ووصفه وتحليله؛ إذ عليه أن يبين ويشرح معنى الظواهر الاجتماعية التي لاحظها وأن يبرز هذا المعنى بوضوح في صور تجاربه الأخرى، ويقتضي ذلك المجهود مهارة في إدراك الصيغ والنماذج اللغوية وتميزها، لا يفهم من ذلك أن على الأنثروبولوجي الاجتماعي أن يكون أديباً حتى ينجح في عمله وإنما يكون قادراً على التعبير والكتابة بلغة واضحة سليمة.

وفيما يتعلق بتدوين التقارير اليومية نلاحظ أن أفضل الظروف لتسجيل المعلومات هي في مكان الحادثة وأثناء حدوثها؛ إذ يتردد على ذلك إبعاد عامل «التحيز في الاختبار» أي التحيز في تسجيل معلومات معينة وإهمال معلومات أخرى، وكذلك إبعاد عامل ضعف الذاكرة الإنسانية، ولكن في

كثير من المواقف تكون عملية تدوين المعلومات أثناء ملاحظة ظاهرة ما أمراً غير ممكن أو قد تؤدي إلى إثارة شكوك الأفراد الخاضعين للملاحظة وقد يؤدي أيضاً إلى تشوُّه الصورة الطبيعية للظاهرة، هذا بالإضافة إلى أن القيام بالملاحظة؛ وتدوين المعلومات في الوقت نفسه يؤدي في الغالب إلى عدم دقة الملاحظة إذ تنقطع الملاحظة أثناء التدوين ولذلك فقد اتُّفق على ضرورة تدوين كل المعلومات في أقرب فرصة متاحة بعد الملاحظة مباشرة، ويجب أن يكون التسجيل بصورة يومية على الأقل وأن يشمل تقريراً مطولاً عن حوادث اليوم، وعلى الباحث أيضاً أن يحاول تسجل «النقاط الهامة» أثناء الظواهر، وخاصة أن هذا التسجيل الخاطف لن يستغرق أكثر من دقيقة، ويستخدم الباحث قطعة ورق صغيرة، أو مظروفاً، أو قطعة خشب، أو ما إلى ذلك. ويستطيع الباحث أن يعتذر بعد الظاهرة الاجتماعية مباشرة ويعود سريعاً لمسكنه لتسجيل المعلومات. وقد لا يتضح للقارئ الأهمية الكبرى للإسراع في تدوين المعلومات؛ لأنه لا يشعر بتلك الحاجة الملحة أثناء حياته اليومية، ولكنه عندما يعيش في مجتمع غريب عنه ذي عادات مختلفة تماماً عن عاداته فإنه سيشعر ولا شك بأهمية التدوين المباشر.

ويجب على الباحث أن يصنف مذكراته حسب فهرس يتكون من الموضوعات الأساسية التي يدرسها وهكذا يسجل المعلومات الخاصة بالموضوع الواحد في مكان واحد، وتظهر أهمية الفهرس إذا عرفنا أن كمية تلك المذكرات تكون في الغالب كبيرة إذ تصل إلى آلاف الصفحات في نهاية الدراسة. وأخيراً أكرر أن طريقة الملاحظة بالمشاركة هي أساس الدراسات الميدانية في الأنثروبولوجيا وميادينها.

ب- طريقة المقابلة غير الموجهة:

يستخدم الأنثروبولوجي أثناء الدراسة الميدانية بالإضافة إلى طريقة الملاحظة بالمشاركة طريقة «المقابلة غير الموجهة» وتتمثل في مقابلة بعض أفراد المجتمع الذين يتمتعون بسمعة طيبة في المجتمع موضوع الدراسة، ويحاول في المقابلات الأولية اكتساب ثقتهم؛ بحيث يفتحون له قلوبهم ولا يحاولون تزييف الحقائق، وفي المقابلات التالية يبدأ الباحث في توجيه الأسئلة لهؤلاء الأخباريين، ويتيح لهم فرصة الإجابة المطولة دون توجيه الإجابة وجهة معينة، وعندما ينتقلون في الحديث من موضع لآخر لا يحاول قطع الحديث، وإنما على العكس يشجعهم بكلمة أو أخرى تزيد من حماستهم في الاسترسال في الحديث حول الموضوع الذي يهم الباحث، ويمكن للباحث تدوين تلك المعلومات أو تسجيلها بالآلات الحديثة إذا كان قد اكتسب ثقتهم، وفي حالة عدم اكتساب تلك الثقة يمكن تدوين النقاط الأساسية بطريقة لا تثير الشك، وفي بعض الأحيان لا يكتب الباحث أية معلومات أثناء المقابلة غير الموجهة، وإنما يدون كل ما سمعه بعد المقابلة مباشرة حتى لا ينسى بعض عناصرها، وتتلخص أهمية هذه الطريقة في أنها تتيح فرصة إظهار سمات شخصية الأفراد وإعطاء معلومات تفصيلية عن الموضوعات التي تدور حولها الأسئلة. ولا توجد تلك المميزات في طريقة المقابلة الموجهة.

جـ- طريقة «سير الحياة»:

يستخدم كثير من الأنثروبولوجيين تلك الطريقة أثناء الدراسة الميدانية، وتتلخص في تدوين أهم الأحداث التي تمر في حياة بعض أفراد المجتمع (موضوع الدراسة)، وعلى «الأخباري» أن يقص على الباحث تاريخ حياته منذ الصغر إلى اللحظة التي يتحدث فيها، ولا شك أن تبادل الثقة بين الباحث و«الأخباري» يساعد على إضفاء صفة الموضوعية على المعلومات بطريقة مقصودة. وتوجد بعض العقبات أمام استخدام تلك الطريقة، منها: صعوبة تذكر الحوادث القديمة وإمكانية الإدلاء بمعلومات كاذبة؛ ولذلك يجب التأكد من صحة المعلومات المستفادة عن طريق الاعتماد على أكثر من «إخباري» والمقارنة بين أحاديثهم والأخذ بالمعلومات المشتركة بينهم.

د- طريقة «المقابلة الموجهة»:

وتتمثل تلك الطريقة في استخدام استمارة تتكون من مجموعة من الأسئلة التي وضعت بدقة حول موضوع معين، وفي معظم الأحيان تشمل الاستمارة كذلك على الإجابات المحتملة، بحيث يمكن ملؤها بسرعة وتفريغها في جداول. وعلى الباحث أن يقرأ كل سؤال أمام الشخص المراد دراسته، ثم يسجل إجابته في الاستمارة ويتم ذلك في الغالب بوضع علامة أمام إحدى الإجابات المكتوبة، ويلاحظ أن قراءة الأسئلة يجب أن تتم بصورة محايدة بحيث لا تؤثر على إجابات المستمع. وتستخدم تلك

الطريقة في أبحاث علم الاجتماع، ولكنها غير منتشرة في الدراسات الأنثروبولوجية الاجتماعية، ويرجع السبب في ذلك إلى أن استخدام طريقة المقابلة الموجهة لا تنجح إلا في المجتمعات المتمدنة، أما في المجتمعات البدائية فإنها تثير شكوك الفرد؛ لعدم تعوده على تلك الطريقة الرسمية في الحديث وخاصة أنه - في الغالب - لا يعرف القراءة والكتابة، ولم يحدث أن قابله أحد وأخذ يسجل أقواله؛ ولذلك لا يستخدمها الأنثروبولوجيون الاجتماعيون إلا في المجتمعات المتمدنة وبجانب طريقة الملاحظة بالمشاركة وطريقة المقابلة غير الموجهة.

هـ- طريقة الاختبارات النفسية:

قد يستخدم بعض الأنتثروبولوجيين أثناء دراساتهم الميدانية بعض الاختبارات النفسية لتحديد خصائص شخصية أفراد المجتمع موضوع الدراسة، ومن أمثلة تلك الاختبارات «اختبار روشاخ» ويتكون ذلك الاختبار من عشر لوحات، رسم على كل لوحة صورة مكبرة لنقطة حبر قذف بها على ورقة فاتخذت شكلاً غير منتظم، ويطلب من الشخص أن يصف ما يمكن أن يتصوره من أشكال عندما ينظر لكل لوحة، وعلى أساس ما يقرره الشخص يمكن التوصل إلى تحديد بعض خصائص شخصيته. ويجب ملاحظة أن قليلاً من الأنثروبولوجيين الاجتماعيين يستخدمون الاختبارات النفسية، ولكن يستخدمها بكثرة الأنثروبولوجيون الثقافيون الذين يتخصصون في تحديد العلاقة بين الشخصية والحضارة في مجتمع ما.

و- طريقة المقارنة:

لا يقنع الأنثروبولوجي الاجتماعي بوصف الحياة الاجتماعية في المجتمع موضوع الدراسة، وإنما يعمل على تحليل المعلومات الوصفية- ليس فقط لتحديد أنماط العلاقات لاجتماعية - وإنما لفهم البناء الاجتماعي كلِّه، ويتم ذلك عن طريق الكشف عن الوظائف الاجتماعية التي تؤديها النظم الاجتماعية، وكذلك الكشف عن التأثيرات المتبادلة بين النظم الاجتماعية، ولا بد للوصول إلى تلك الصورة الكلية سواء أكانت الدراسة ترمي لتحليل نظام اجتماعي واحد أم أكثر. وعلى الأنثربولوجي الاجتماعي بعد الكشف عن طبيعة البناء الاجتماعي والأنماط الاجتماعية الأساسية أن يقارن تلك الظواهر اجتماعية بمثيلاتها في المجتمعات الأخرى، ولا شك أن كل دراسة جديدة لمجتمع ما تساعد على توسيع مجال المقارنة. ويجب عند المقارنة استخدام الدراسات الميدانية التي يمكن الاعتماد عليها والثقة في موضوعيتها، ونقصد بذلك الدراسات الميدانية التي يقوم بها المتخصصون في الأنثروبولوجيا بفروعها المختلفة، أما الدراسات الوصفية التي يقوم بها الرحالة ورجال الصحافة وغير المتخصصين فهي لا تصلح للمقارنة.

لقد أشرت - سابقاً - إلى اتجاه بعض الأنثروبولوجيين الاجتماعيين إلى تركيز دراساتهم الميدانية في مجتمع واحد، أو عدد قليل من المجتمعات، ويعرف هذا الاتجاه «بتقليد مالينوفسكي» ويتلخص في التخصص في مجتمع واحد، أو ثلاث على الأكثر بحيث يقضي العالم حياته كلها في الكتابة عنهم وتحليل البناء الاجتماعي لكل منهم للوصول إلى فهم عميق

للأنماط الاجتماعية التي يتكون منها البناء الاجتماعي. ويؤمن العلامة مالينوفسكي بأنه لا يمكن فهم الحياة الاجتماعية لدى شعب من الشعوب البدائية إلا إذا درست دراسة عميقة مركزة، وقد نادى بضرورة القيام بدراسة ميدانية مركزة واحدة على الأقل قبل التخصص في الأنثروبولوجيا الاجتماعية، ومعظم الجامعات في العالم قد استجابت النداء وجعلت الدراسة الميدانية شرطاً ضرورياً للحصول على الدرجات الجامعية العالية في الأنثروبولوجيا الاجتماعية. ولا شك أن أوضح مثال هو دراسات العلامة «مالينوفسكي» ذاته، فقد استغرقت دراسته الميدانية لقبائل «التروبرياندر» بمنطقة ميلانيزيا مدة أربع سنوات، وكان أول من استخدم لغة الأهالي في جمع المعلومات، وقد أتاحت له هذه المدة الطويلة فرصة التعمق والتغلغل في الحياة الاجتماعية عند تلك القبائل، ووضع عنها عدة مؤلفات تدور كلها حول حياتهم الاجتماعية. ولا شك أن «تقليد مالينوفسكي» يتعارض - بعض الشيء - مع اتجاه إجراء المقارنات بين الأبنية الاجتماعية للمجتمعات المختلفة؛ لأنه يركز اهتمام العالم بمجتمع معين بحيث يستنفد هذا التركيز كل مجهودات العالم، هذا بالإضافة إلى أنه يؤدي إلى قلة عدد الدراسات مما يعرقل المقارنات، وقد لاحظ العلامة «بريتشارد» تلك المشكلة ونادى بتطبيق نوع من المقارنة أطلق عليه اصطلاح «المنهج التجريبي»، ويتلخص في: أن يقوم كل أنثروبولوجي اجتماعي باستنتاج عدة نتائج من دراسته العميقة لمجتمع واحد، ثم يقوم الباحث نفسه أو باحث آخر بالتحقق من صحة وواقعية تلك النتائج ومطابقتها

بالنسبة لمجتمعات أخرى، وهكذا تتسع دائرة فحص تلك النتائج تدريجياً، وهي في الحقيقة لا تخرج عن كونها فروضاً، وتصبح تلك الفروض في النهاية قوانين أو مبادئ عامة. ومن العلماء الذين طبقوا هذه الطريقة العلامة «شنيدر» عندما فحص النتائج التي توصل إليها العلامة «بريتشارد» في دراسته لقبائل «النوير» عن طريق تطبيقها على قبائل «الزولوا» وهناك مثل آخر يتمثل في دراسة العلامة «نادل» الذي فحص ظاهرة السحر في أربعة مجتمعات أفريقية. ويرى العلامة «شابيرا» أنه يمكن المقارنة بين المجتمعات المتقاربة مكانياً ثم تتسع المقارنة تدريجياً.

ويجب ملاحظة الفرق الكبير بين طريقة المقارنة المبينة فيما سبق وطريقة المقارنة التي استخدمها علماء القرن التاسع عشر، إن طريقة المقارنة المقصودة هنا تعتمد على دراسات ميدانية موضوعية قام بها متخصصون، وبالتالي تؤدي إلى مبادئ عامة وقوانين اجتماعية، أما المقارنة التي طبقها علماء القرن التاسع عشر فكانت تعتمد على أقوال الرحالة وغير المتخصصين، ويتسم بالموضوعية؛ ولذلك لم يترتب عليها سوى التأملات والتخمينات التي ثبت عدم واقعيتها.